الفصل الأول

إعادة إحياء الجهاد

بيشاور

في يوليو/ تموز من عام 1973، وفي العاصمة الأفغانية كابول، قاد داوود خان انقلاباً أبيض للإطاحة بحكم ابن عمه ملك أفغانستان الذي كان يقضي إجازة الصيف في أوروبا. ونصب داوود حكومة جديدة يسيطر عليها الحزب الشيوعي. وعلى الرغم من أن الحدث لم يسجل أي اهتمام يذكر خارج حدود أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أنه عجّل بثلاثة عقود من الحرب المستمرة التي جذبت أقطار العالم إلى فلكها. أطيح بحكم داوود وقتل في انقلاب عسكري بعد خمس سنوات. ثم أعقب الانقلاب الثاني انقلاب ثالث في السنة التالية. وكان الانقلاب الأخير مصحوباً بموجات من العنف وحمامات الدم، وبدت أفغانستان على إثرها وكأنها تدور خارج نطاق السيطرة. وأصبح الوضع يهدد بالانفلات من قبضة الجار القريب من الشمال وهو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. فهبطت قوات الصاعقة من المظليين في كابول في ديسمبر/ كانون أول من عام 1979 متقدمة أرتال القوات التي زاد تعدادها عن المئة ألف جندي. وتمت الإطاحة بالحكومة القديمة وتنصيب حكومة جديدة. وأمضى السوفييت العقد اللاحق في الدفاع عما شكّل من الناحية الفعلية آخر معاقل الإمبراطورية.

لقي هذا الاحتلال السافر إدانة واسعة من المجتمع الدولي. وجاءت أقوى صور الإدانة من العالم الإسلامي الذي اعتبر هذا الاحتلال هجوماً مباشراً

obeikan.com

على الإسلام يتطلب رداً مباشراً. وتصدر طلائع الرد على هذا الهجوم أكاديمي فلسطيني اسمه عبدالله عزام.

ولد عزام عام 1941 في مدينة جنين في الضفة الغربية، وهو من نتاج الشتات الفلسطيني. وكان مهتماً بالدراسات الإسلامية والسياسية. شارك في حرب الأيام الستة عام 1967، والتحق بعدها بالمقاومة الفلسطينية، ثم تركها لأنها كانت - كما يقول - حركة سياسية دون جذور إسلامية، فانضم إلى حركة الإخوان المسلمين وساعد فيما بعد في تأسيس حركة حماس كبديل عن منظمة التحرير الفلسطينية، وتابع مسيرته التعليمية في الأردن ودمشق وأخيراً حصل على شهادة الدكتوراه في جامعة الأزهر أكبر صرح تعليمي إسلامي.

وعندما احتل الروس أفغانستان عام 1979، كان عبدالله عزام من بين أوائل المسلمين المتعاطفين مع القضية الأفغانية من غير الأفغان الذين انضموا إلى مقاومة السوفييت. وقدم على الفور إلى إسلام أباد عاصمة باكستان. ولما تبين له بُعد العاصمة الباكستانية عن ساحة الحرب، انتقل إلى بيشاور عاصمة الإقليم الباكستاني الشمالي الغربي المحاذي للحدود الأفغانية، وهو الإقليم الذي يحكمه بالدرجة الأولى الخوف والذخيرة. وهناك، وجد عزام ضالته: أفغانستان ستكون الحاضنة لإسلام قوي جديد، دين يضم المقاتلين والمجاهدين كالمقاتلين الذين كانوا في وقت النبي. وقد سبق لكل من سيد قطب وحسن البنا وضع أسس منهج الحركة الإسلامية المعاصرة، والأول هو مؤسس حركة الإخوان المسلمين والثاني هو الذي قام بنشر الفكرة. وفي إعادة لصياغة التعاليم القديمة لتناسب العالم المعاصر، سعى الاثنان إلى إقامة الحكم الإسلامي في مصر موطنهما الأصلي، وفي أي دولة تدعي أنها مسلمة. ولتحقيق ذلك الهدف، روج الاثنان إلى الثورة العارمة باسم الرب ضد الخونة، وضد الحكومات المرتدة في الدول الإسلامية. وقد قوبل هذا العصيان

بسياسات قميعة دموية شرسة، وإلى حد بعيد، فعالة في مصر. وبسبب هذا الرد، بقيت تلك الأفكار في إطارها النظري ومحصورة في أذهان النخبة الإسلامية إلى أن جاءت أفغانستان. وهناك رأى عزام الفرصة في تحقيق الوعود المجردة لسيد قطب وحسن البنا على أرض الواقع، وخوض معركة حاسمة من أجل الإسلام، لاستعادة العزة والكرامة، يقول عزام: "ومن أهم الفرائض الغائبة والواجبات المنسية فريضة الجهاد التي غابت عن واقع المسلمين فأصبحوا كغثاء السيل"[1].

لقد كان الجهاد – كما يكتب عزام – هو سبيل عزة الأمة، ولا يمكن تحقيق عزة الأمة إلا خلف فوهة البندقية. وكان يقول: "الجهاد والبندقية وحدهما: لا للمفاوضات، لا للمؤتمرات، لا للحوار"[2]. لقد أشاع عزام، أكثر من أي رجل آخر، التصور الحديث للواجب الإسلامي بشن حرب مقدسة. وكان الهدف ليس بأقل من إعادة حكم الإسلام على الكرة الأرضية، وهو واجب عالمي. ويرى عزام أنه واجب يفرض على المسلمين كافة الانضواء تحت لوائه. واستشهد بالقرآن[*]:

> .. فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج فإن قصروا عصوا. فإذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى كان النفير عاماً، ووجب الخروج خفافاً وثقالاً ركباناً ورجالاً عبيداً وأحراراً، من كان له أب من غير إذنه، ومن لا أب له حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزى العدو ويستنقذ الاسرى ولا خلاف في هذا. فكيف يصنع الواحد إذا قعد الجميع؟ يعمد إلى أسير واحد فيفديه، ويغزو بنفسه إن قدر وإلا جهز غازياً[3].

(*) هذا الاستشهاد ليس من القرآن كما ذكر المؤلف، بل هو استشهاد بكلام ابن العربي في أحكام القرآن كما هو مذكور في المصدر المحال إليه.

تقع بيشاور موطن عزام الجديد على رأس هضبة مطوقة بسلسلة من الجبال التي تمتد شمالاً وغرباً حتى ممر خيبر ومن خلفه أفغانستان. وتعتبر المدينة مدينة بشتونية - المجموعة العرقية الأكبر في أفغانستان - أكثر منها مدينة باكستانية، وقد سبق أن كانت المدينة عاصمة لأفغانستان في وقت من الأوقات. ومنطقة البشتون منطقة ذات طبيعة جغرافية قاسية وحياة أقسى، ولا يتوفر فيها أراض زراعية كافية، ولا حتى احتمالات العيش. ويطغى على المنطقة طابع شبيه بحياة الصحراء الأمريكية الغربية التي تتميز بالخشونة والوحشية. ويُعتبر البشتون في نظر الغرباء قوماً يتميزون بالمكر والدهاء، تماماً كطبيعة أرضهم، وأنه لا يمكن الثقة بهم. والثقة، كما يقول البشتون، ليست هي القضية. فهم يعيشون بمقتضى قاعدة بسيطة تقول: إذا حسدت الرجل على امرأته أو ذهبه أو أرضه، فإنك ستضطر، لا محالة، إلى التعامل مع هذا الرجل نفسه. ولا يظنن أحد أنه سينجو بنفسه بعد هذه المواجهة.

تطورت بيشاور، على مدار العصور، إلى مكان معقد أكثر من غيرها من مناطق الإقليم، وذلك بفضل وقوعها على طريق تجارة الحرير القديمة بين أوروبا وآسيا؛ وأصبحت نقطة تقاطع عالمية بالنسبة للتجار والمحاربين ورجال الدولة. وكغيرها من المناطق الحرة، فإن تاريخها حافل بقصص المنازعات والتسويات والحروب. وأصبحت بيشاور في الثمانينيات عاصمة المقاومة الأفغانية. ومع التدخل السوفييتي، وبدونه، كانت السياسة الداخلية الأفغانية معقدة بفعل طبقات من الأحقاد الشخصية، والأيديولوجية، والقبلية، والإثنية، التي لم تحل طوال الألف عام التي مضت[4]. وكان التأثير المباشر لهذا التاريخ فيما يخص السوفييت هو مقاومة داخلية لهذا الاحتلال انعكست فيها طبقات الأحقاد والتعقيدات، وغالباً ما كانت عداوتها لبعضها لا تقل عن عداوتها للسوفييت.

وحتى قبل الاحتلال السوفييتي، كانت الحرب الأهلية على وشك الاندلاع. وكان هدف السوفييت هو تغيير حكومة عميلة بحكومة عميلة أخرى يؤمل منها أن تكون أكثر قبولاً لدى الشعب الأفغاني، وأكثر مطاوعة لموسكو. وكانت المعارضة المحلية للحكومة – وخصوصاً تلك التي تعتقد أن الحكومة تفتقر إلى الشرعية الإسلامية – قد بدأت بالفعل بتنظيم صفوفها المتمركزة في بيشاور[5]. وبعد الاجتياح السوفييتي تضاعف عدد جماعات المعارضة في الداخل ناهيك عن تلك التي في المنفى. وفي البداية كانت تلك الجماعات تعاني من شح الدعم المالي وانعدامه، واستطاعت البقاء عن طريق ما يمكنها تجنيده من الأفراد أو ما يمكنها سرقته من المال. إلا أن الدعم المالي – وعلى عكس ما كان يحلم به الأفغان – بدأ بالتدفق بغزارة. ومع حلول منتصف الثمانينيات كان يصل المقاومة أكثر من مليار دولار سنوياً. وكان تصنيف مجموعات المقاومة الأفغانية مهمة شبه مستحيلة، إلا أن تصنيف من يأخذ المساعدات كان أمراً ضرورياً. وتم تشكيل هيكل هرمي لفصائل المقاومة نزولاً عند رغبة وإلحاح الممولين وهم: الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وباكستان. واعتمد الباكستانيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم بحكم القائم بجهود الحرب[6] ستة من الأحزاب السياسية الأفغانية لتلقي الأموال وأضافوا حزباً سابعاً فيما بعد. وكانت هذه الأحزاب جميعها من الأحزاب الأصولية الإسلامية، وجميعها لها جيوش مستقلة عن بعضها بعضاً.

تحولت بيشاور بحكم كونها مركز المقاومة الأفغانية إلى قبلة للذين يرغبون بالالتحاق بالمقاومة من خارج أفغانستان. ونتيجة لجهود عبدالله عزام بالدرجة الأكبر، جاء آلاف المسلمين للانضمام إلى صفوف الأفغان في حرب مقدسة ضد الملحدين الشيوعيين. وقام عزام بتدويل الجهاد. وعمل دون كل أو تعب، وعلى مستوى العالم كمجند للمتطوعين. وسافر إلى أوروبا ودول الشرق الأوسط وقام بعدة جولات في الولايات المتحدة لجمع الأموال للجيش الذي

يقوم بالجهاد ولو نظرياً. وبتمويل من التبرعات التي جمعت بشكل رئيس من المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج، وبمساهمات من دول باقي أرجاء العالم، فتح عزام مكاتب تجنيد في ثلاثين دولة بما فيها الولايات المتحدة. لم تكن كتاباته أطروحات فكرية، بل دعاية إيدلوجية، أشبه بكتابات توم بين وليس جون لوك. وحظيت نشاطاته في الولايات المتحدة بتأييد الحكومة الأمريكية التي اختارت أن تتجاهل محتواها وترحب وتعزز نتائجها.

كانت الولايات المتحدة واحدة من أبرز حلفاء المقاومة الأفغانية. فقد واجه الرئيس جيمي كارتر الاتحاد السوفييتي في حملته لحقوق الإنسان، وكان مستشاره للأمن القومي زبيغينو بريجينسكي متحمساً لمواجهة السوفييت في ساحة الحرب عن طريق دعم طرف ثالث(7). وتمشياً مع توصيات بريجينسكي، أقر كارتر المساعدات العسكرية والمالية للمقاومة الأفغانية حتى قبل الاجتياح السوفييتي. وقال بريجينسكي بأن الهدف الواضح من المساعدات السرية كان تشجيع التدخل السوفييتي، وهو ما حدث بالفعل. وانضمت السعودية في تقديم المال والمتطوعين إلى هذا التحالف غير الطبيعي المؤلف من المقاومة الأفغانية وباكستان وعزام والأمريكيين.

ويقول وحيد حمزة هاشم، الخبير بشؤون السياسة السعودية: "جعلت الحكومات المسلمة من قضية الجهاد الأفغاني قضية دينية، وسيلة لإحياء الإسلام، ومقاومة الغزو الثقافي الغربي، ومواجهة إيران والخطر الشيعي على السنّة"، ويضيف هاشم، "وها قد جاء الغزو السوفييتي في وسط هذا كله. ورأى العالم العربي نفسه محاصراً. فالحكومات تستمد شرعيتها بشكل أساسي من السلطة الدينية. ورأى [الحكام] في ذلك فرصة لتعزيز رصيدهم الديني ومن ثم تعزيز سلطتهم السياسية. وللدفاع ضد إيران، عليك بالتعبئة الدينية. وللدفاع ضد السوفيت عليك بالتعبئة الدينية. وكأنهم يقولون - نحن

Obeikan.com

ذاهبون إلى الجهاد. فهل ترغب بالذهاب معنا؟ - وعندما بدأت التعبئة، لم تكن مؤسسية بل كانت محلية. فكل شخص كان مسؤولاً، وكل شخص شارك في العملية.

"فلو أراد رجل أعمال أن يؤدي زكاة ماله إلى أفغانستان، فإنه يتوجه بنفسه إلى هناك، فيستقل الطائرة ويذهب إلى أفغانستان. كان الفرد يملك السلطة والمسؤولية. وكان كل شيء محموماً. لم يكن بالإمكان تنظيم العملية. ولم يكن بالإمكان السيطرة على الأمور. فقد نما الوحش وكبر"(8).

وكان لكل واحد من الحلفاء - المجاهدين الأفغان والولايات المتحدة، وباكستان، والمملكة العربية السعودية - أسبابه الخاصة لمعارضة السوفييت: فالأفغان، من الواضح أنهم يريدون استعادة استقلال بلادهم؛ والأمريكان، وكما كان ديدنهم على مدى ثلاثين عاماً، كانوا يركزون على من يقاتلون - السوفييت - وليس أين يقاتلون؛ ولم يكن همهم أفغانستان، بل كان السياسية الواقعية؛ وكان السعوديون يحاولون حماية مراكز قواهم المحلية التي ترتكز على تحالف الحكومة مع السلطة الدينية؛ أما باكستان فكانت تريد السيطرة على أفغانستان بجعلها منطقة عازلة بينها وبين الخطر السوفييتي القادم من الشمال وحصناً ظهيراً لمهاجمة الهند من الجنوب. وقامت الحكومة السعودية بإرسال مئات الوعاظ وبلايين الدولارات. وأغدقت الولايات المتحدة الأسلحة عن طريق باكستان وقابلت كل مليون دفعته السعودية بمليون من عندها، وكلها تدخل أفغانستان عن طريق بيشاور.

كان عنف البنادق هو طريق الحياة والموت في المنطقة قبل حرب السوفييت بوقت طويل. وهناك مثل بشتوني يقول: حلي الرجل بندقيته. إلا أن ماضي المنطقة لم يشهد شيئاً بهذا الحجم. وتم تكليف جهاز الاستخبارات الداخلية الباكستانية بتنفيذ المصالح الأمريكية والسعودية. وكان هذا الجهاز

في ذلك الوقت، وما زال، أقوى جهاز حكومي في باكستان. وكان هذا الجهاز وبدرجة كبيرة مسؤولاً عن وضع الحكومات المتعاقبة وإسقاطها في باكستان منذ انفصالها عن الهند. ويوجد لدى قادة هذه الجهاز دوافعهم الدينية والسياسية في أفغانستان. وبالمقارنة مع بقية الأجهزة الحكومية، كان جهاز الاستخبارات الباكستانية أقواها نزعة إسلامية، وكان قادة هذا الجهاز يرغبون في تأسيس دولة إسلامية تابعة لهم في أفغانستان. وكان سعيهم نحو أهدافهم - من وقت لآخر - يتعارض مع أهداف الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، الأمر الذي تسبب في خلق التشويش والصعوبات في إدارة الحرب منذ البداية. وقد أدرك المسؤولون الأمريكيون بأن تكليف هذا الجهاز بتسيق دفة الحرب يعد قراراً خطيراً، ولكنهم كانوا يدركون أيضاً أنه ليس لديهم متسع من الخيارات. فقد أنشأ جهاز الاستخبارات الباكستاني عمليات إسناد ونقل جديدة أشبه ما تكون بخدمة يو بي أس(*) في مستوى العالم الثالث، وذلك لتوزيع فيضان الأسلحة المتدفقة. ولم تكن هذه الأسلحة من أسلحة العالم الثالث. فقد كانت أرتال الناقلات من فئة العشرة أطنان تنقل البنادق الأوتوماتيكية، والرشاشات وقاذفات القنابل، ومع اقتراب نهاية الحرب، تم إرسال صواريخ ستينغر المضادة للطائرات يومياً بعد تفريغها في ميناء كراتشي على بحر العرب إلى بيشاور ومنها إلى عمق الأراضي الأفغانية. وعلى الأقل، كانت تلك النية. والقسم الأكبر من هذه الأسلحة تعرض للسرقة أو خضع للضرائب قبل أن تصل الحدود(9).

كانت غالبية الذين لبوا نداء عزام إلى اللحاق بالقافلة - بحسب تعبيره - من العرب. يقول الجنرال حامد غول رئيس الاستخبارات الباكستانية في ذلك الوقت: لقد كانوا "أول كتيبة دولية في العصر الحديث. كان للشيوعيين كتائبهم

(*) شركة أمريكية لتوصيل الطرود البريدية.

obeikan.com

الدولية، والغرب لديه حلف الناتو، فلماذا لا نتحد نحن المسلمين على جبهة واحدة؟"(10).

ومنحت باكستان تأشيرات الدخول لكل من هب ودب، وقدمت التسهيلات والإرشادات لكل شخص، ومن أي مكان، ويرغب في الالتحاق بالقتال. وقدمت شركة الطيران السعودية أسعاراً خاصة بنصف القيمة للجهاد من الرياض وجدة إلى بيشاور. وأرسلت الحكومات العربية البعثات وفتحت مكاتب لعشرات الجمعيات الخيرية المدعومة من الحكومات لتقديم المساعدات الإنسانية وتقديم العون للمقاتلين. وعلى مدى عشرة أعوام، تحولت أجزاء من بيشاور إلى ما يشبه مكة صغيرة.

يقول رحيم الله يوسفزاي، وهو صحافي من بيشاور ومن أبرز مؤرخي الحرب الأفغانية: "كانت بيشاور مدينة عربية مزدحمة - المطاعم العربية، البازارات، المخابز"، ويضيف "خلال أيام الجهاد، كانت هناك صحف ومجلات عربية تصدر هنا. ورجال يلبسون الكوفية، ونساء منقبات".

جدة

ومن بين أوائل الذين لبوا نداء عزام أحد تلاميذه السابقين من جدة، واسمه أسامة بن لادن، أحد الأثرياء السعوديين العاملين في قطاع الإنشاءات. وحتى تلك اللحظة، كان ابن لادن يعيش حياة غير مركزة كغيره من أبناء الأسر الغنية في المملكة. وكان الابن الوحيد من زوجته الرابعة من بين زوجاته الثمانية، ولد عام 1957، وهو واحد من بين أولاده الخمسين. وكانت أعمال أبيه في ذلك الوقت في طور التوسع والنمو بعد أن أصبح المقاول المفضل لدى الأسرة الحاكمة السعودية. وكان محمد بن لادن، والد أسامة، بدأ حياة متواضعة كمهاجر يمني من مقاطعة حضرموت وسط اليمن، ليصبح فيما بعد أكبر متعهد لتعبيد الطرق في المملكة في الستينيات، وهي الفترة التي شهدت

Obeikan.com

فيها البلاد تدفق المليارات من عائدات النفط. وتضم المملكة أكبر بئر للنفط تم اكتشافه حتى الآن، إضافة إلى العشرات الأخرى. وبدأ تدفق النفط في مطلع الأربعينيات من القرن الماضي، ونتج عنه تحول كبير في البلاد. ومن بين الآثار العجيبة للثروة النفطية أن ظهر في البلاد فجأة آلاف الأثرياء من أبناء العائلة المالكة. وكان لديهم كافة الوسائل للحصول على رموز الثراء ولكن دون السياق الذي يمكنهم من إظهار تلك الرموز؛ فكان لديهم السيارات الفارهة ولكن دون الطرق المعبدة. وكان نجاح محمد بن لادن في بناء الطرق السريعة لأساطيل سيارات الفيراري والكاديلاك ممهداً لحصوله على أجلّ وأعظم صفقة يمكن أن يحلم بها أحد في المملكة وهو مشروع توسيع وإعادة ترميم الحرمين في مكة والمدينة. وقد أمنت تلك الصفقة ثروة الأسرة لأجيال لاحقة[11]. إلا أنه وقبل أن يتم ذلك، توفي محمد بن لادن الذي كان قد طلق أم أسامة، في حادث تحطم طائرة. وحصل أسامة الذي كان طفلاً في ذلك الوقت على قسم من ثروة أبيه. ولا أحد يعرف بالضبط تقدير تلك الثروة، وهي تتراوح بين العشرات إلى مئات الملايين من الدولارات.

درس أسامة الاقتصاد والهندسة في الجامعة، ولكنه لم يحصل على أي دور فيما أصبح يعرف بمجموعة ابن لادن. ولا يوجد اتفاق في الرأي لماذا كان ذلك. ومن أقوى التفسيرات التي ذكرت تلك التي تقول بأن أسامة كان يطمح بدور قيادي في المجموعة بعد أن أكمل دراسته الجامعية إلا أنه هُمش وحُيّد من قبل أخوته الآخرين، إما لأنه كان يفتقد مهارات العمل، كما تذكر بعض المصادر، أو لأنه حاول السيطرة على المجموعة على حساب أخوته الأكبر سناً ولكن دون نجاح"[12].

ومهما كان السبب، فإنه عندما اجتاحت القوات السوفييتية أفغانستان، لم يكن لأسامة بن لادن أي نشاط في السعودية. فقد كانت الحكومة السعودية

obeikan.com

والمؤسسة الدينية تجند المتطوعين للمساعدة في جهود الحرب. ويقول منتقدو الأسرة الحاكمة في السعودية بأنهم قاموا بذلك بالدرجة الأولى لإرضاء الأصوليين في المملكة، ولإظهار التزام الأسرة الحاكمة بالإسلام. وتبرعت الحكومة السعودية عن طيب خاطر بالأموال من الخزينة العامة، ومن تبرعات الأفراد العاديين، وشجعت المتطوعين. وقام ابن لادن الذي كان دائماً مسلماً ملتزماً بالتبرع من ماله وطُلب منه تنظيم تبرعات أخرى.

إن القول بأن ابن لادن حتى ذلك الوقت كان مسلماً ملتزماً قد لا ينقل للقارئ الغربي ما يمكن أن تعنيه تلك العبارة. فقد كانت المملكة العربية السعودية من أكثر الدول المحافظة على وجه الأرض اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ويقوم أساس الدولة، في جزء مهم منه، على التزام الحكومة بتلك النزعة الدينية المحافظة التي هي نتاج الاتفاق بين أسرة ابن سعود وعلماء مذهب أصولي متشدد يعرف بالوهابية. (ومع أن الآخرين يصفونهم بالوهابيين؛ إلا أنهم يصفون أنفسهم بالمسلمين) وقد نشأت الحركة الوهابية في وسط الجزيرة العربية في القرن السابع عشر، ويسمي أتباع هذا المذهب أنفسهم بالموحدين. ولدى الوهابيين رسالة إصلاحية قوية استطاعوا من خلالها جذب قبائل وسط الجزيرة إلى حركة عسكرية قوية كما يرى الباحث برينارد هيكل المتخصص بالإسلام السياسي في جامعة نيويورك. وقد تم القضاء على الدولة الوهابية الأولى على يد الحكام العثمانيين الذين كانوا قلقين من تلك الحركة. إلا أن الحركة عادت إلى الظهور وبشكل معدل نسبياً عندما قام الملك عبدالعزيز بن سعود والمشهور بابن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية بإقامة أسس دولته وفتوحاته على المذهب المعروف بمذهب السلفية.

نشأت السلفية بين المفكرين المصريين، ثم امتدت خارج حدود مصر، وكان ذلك مصير كثير من المعارضين المصريين. وأصبحوا من المفكرين الإسلاميين

ذوي التأثير في الكويت والمملكة العربية السعودية، حيث تبنى الوهابيون الذين يحكمون البلاد معظم أفكارهم وآرائهم التي هي من نتاج القاهرة وليست من نتاج الصحراء، وكان لها بريق من المهابة الفكرية التي يفتقر إليها أهل الصحراء[13].

واستخدم ابن سعود حنكته العسكرية وقوته لهزيمة وإخضاع القبائل الأخرى في شبه الجزيرة العربية. كما استخدم معتقداته الدينية لإضفاء الشرعية على حكمه. وبقيت المعتقدات السلفية المذهب السائد والشامل في المملكة حتى يومنا الحاضر. وبحسب رأي بيرنارد هيكل فإن "السمة المميزة للسلفية تقوم على دعوة المسلمين المعاصرين إلى العودة إلى الإسلام النقي الذي كان سائداً في عهد النبي محمد وعهد صحابته وتابعيهم والذين يطلق عليهم السلف الصالح، ومن هنا جاءت تسمية كلمة سلفي. والرسالة السلفية رسالة طوبائية، يهدف أتباعها إلى تحويل الأمة الإسلامية وتحقيق هيمنة الإسلام كنظام دولة وطريقة حياة، على كافة أرجاء الأرض. والسلفيون ليسوا ضد التقدم التقني ولا ضد ثماره؛ ولكنهم يمقتون الابتداع في العقيدة وفي الممارسات التي لم يثبت لها أصل في العهد الإسلامي النقي"[14].

ويرى السلفيون المعاصرون أن المساعدة في إقامة الحكم الإسلامي في أفغانستان هو واجب والتزام ديني، وليس مجرد رغبة أو خيار. وهذه هي الرسالة التي دعا إليها عبدالله عزام، وفي كثير من الأحيان وجدت هذه الرسالة آذاناً صاغية وجاهزة. قدم أيمن الظواهري، وهو طبيب شاب وناشط سياسي من أسرة مرموقة في القاهرة، إلى بيشاور في إجازة مؤقتة لتقديم المساعدة الطبية عام 1980 [15]. وكان الظواهري ناشطاً في حركة الإخوان المسلمين في مصر. تلك الحركة التي كانت تخوض حرباً سرية مع الحكومة المصرية منذ عقود دون نجاح يذكر. ويعتبر عدم قدرة الحركة على صياغة

أسباب مقنعة لمواقفها المعارضة من بين الأسباب البارزة للصعوبات التي تواجهها الحركة. وامتد نقد الحركة للحكومة من أقصى اليمين الإيديولوجي - الإصرار على التطبيق الأصولي للشريعة - إلى أقصى اليسار - الإصرار على إشراك الشعب في الحكم. وفي أفغانستان، ظهر تفسير جديد أبرز نفسه بقوة. حيث كتب الظواهري لاحقاً يقول(*):

لقد أعلن الشباب المسلم الحرب في أفغانستان تحت رايات إسلامية خالصة، وهذه مسألة جوهرية؛ لأن كثيراً من حروب التحرير في عالمنا الإسلامي تمت تحت شعارات مختلطة مزجت بين الوطنية والإسلام، وفي أحيان أخرى جعلت الإسلام يختلط بالشعارات اليسارية والشيوعية. وقد أوجد ذلك انقساماً في تفكير الشباب المسلم بين العقيدة الجهادية الإسلامية التي يجب أن تقوم على الولاء الخالص لدين الله، وبين تطبيقاتها العملية.... وفي أفغانستان، فإن الصورة في غاية الوضوح: الأمة الإسلامية تقوم بالجهاد تحت راية الإسلام، ضد عدو أجنبي معتد كافر، تدعمه حكومة عميلة مرتدة في الداخل. وفي هذه الحرب، فإن تطبيق النظرية على الحقائق واضح لا لبس فيه. وهذا الوضوح مفيد في دحض الغموض الذي أثاره كثير من الناس الذين يدّعون القيام بالعمل الإسلامي، ولكنهم تخلفوا عن الجهاد تحت ذريعة عدم وجود ساحة يتضح فيها التمييز بين المسلمين وأعدائهم[16].

أدرك أسامة بن لادن هو الآخر أهمية القتال في أفغانستان، والتحق في صفوف عبدالله عزام في بيشاور. وكان عبدالله عزام قد قام بتأسيس ما كان يطلق عليه مكاتب الخدمات التي مولها ابن لادن. وكان هدف هذه المكاتب هو

(*) ترجمة عن النص الإنجليزي.

أن تكون مركز جمع وتوزيع المتطوعين للجهاد من العرب الذين بدؤوا بالتوافد بأعداد كبيرة بحيث أصبح من اللازم أن يتولى أحد مهمة تنظيمهم، وليس بأقل من أن يقدم لهم الإرشادات حول كيفية الوصول إلى الحدود الأفغانية.

سياف أباد

قيل بأن بيشاور في وقت الجهاد كانت تحتوي على أكبر نسبة من الجواسيس والعملاء السريين والمتآمرين المرتزقة بالنسبة لعدد السكان في أي مدينة في العالم. كانت الأحاديث تفوح بالدسائس والغايات؛ ثمة شيء ما مهم في خطر. وكانت المدينة تجسد المكر والدهاء والخديعة ولكن في عالم بسيط. وبغض النظر عن البغية التي يسعى إليها كل طرف، فقد كان الهدف الوحيد الأوسع الذي يشترك فيه الجميع هو: إخراج السوفييت. كان كل شخص يعرف الآخر، يصلون ويتواصلون مع بعضهم بعضاً، بل ذهبوا إلى معسكرات تدريب الجهاد معاً. وقد أقامت الفصائل السياسية المختلفة عشرات من هذه المعسكرات حول بيشاور قبالة الحدود الأفغانية. وكانت المعسكرات مقسمة بحسب المذاهب الدينية والخلفية العرقية والأحزاب السياسية التي كانت سائدة قبل الغزو السوفييتي في المنفى. وبعضها كان مقسماً بحسب الهدف: فكانت هناك معسكرات لتقديم التدريب العسكري، وبعضها لصنع القنابل، وبعضها للتدريب على الأسلحة المتقدمة. كم تحددت المعسكرات بحسب الجهة التي كانت تقدم الدعم لها والهدف الذي أقيمت من أجله. وكانت غالبية المعسكرات تدار من قبل الأفغان لتدريب المجاهدين من بني جلدتهم الذين كانوا في غالبيتهم من المزارعين ويفتقرون إلى الخبرة العسكرية"[17].

تطلبت الانقسامات العميقة والمتعددة بين المجاهدين أن يسعى طرف ما إلى توحيدهم، وإذا تعذر ذلك، فعلى الأقل تحديدهم لكي يسهل على الأمريكيين والباكستانيين والسعوديين معرفة كيف يوجهون أموالهم وخبراتهم.

obeikan.com

وفي البداية، حاول الأفغان تنظيم مظلة من التحالف تجمع جماعات وأحزاب المعارضة كافة، إلا أن باكستان رفضت التعاون مع الجماعات غير الإسلامية. وتم تضييق التحالف فيما بعد ليستثني أحزاب المعارضة اللادينية والجماعات الشيعية. ووقع الاختيار على رجل حديث العهد ببيشاور هو عبد[رب] الرسول سياف، الذي ينحدر من أصول بشتونية وعمل في السابق محاضراً في جامعة كابول ويعرف بلقب "البرفسور". كان سياف قد تلقى تعليمه في جامعة الأزهر في القاهرة، وأمضى عدة سنوات في السعودية ويتحدث العربية بطلاقة. وهو من الناشطين في حركة الإخوان المسلمين كعبدالله عزام والظواهري، وتشبع من مزيجها الغريب الذي يجمع بين الأصولية الإسلامية والمثل الديمقراطية الحديثة؛ وبالاختيار كان النصف الأصولي في المعادلة هو الأكثر إقناعاً. وذكر سياف أمام أصدقائه في وقت يعود إلى منتصف الستينيات بأنه يعارض الإصلاح الديمقراطي[18].

كان سياف من بين قادة المعارضة الإسلامية للحكومة الشيوعية في أثناء عمله في جامعة كابول، وأدخل عام 1975 سجن بوليتشارخي الذي يشبه القلعة المحصنة ويقع في ضواحي كابول، وهو السجن الذي اشتهر بقصص التعذيب الوحشي التي وقعت بين جدرانه. وكان سيافاً من بين الأصوليين القلائل في السجن؛ فالبقية كانوا قد دفنوا في المقبرة الكبيرة التابعة للسجن، بحسب ما يذكر أمين فارهانغ أحد رفاقه في الاعتقال. لم تمنع احتمالات الموت سياف من إظهار معتقداته، فأبقى على لحيته الطويلة التي تعد رمزاً للتدين. وكانت لحية سياف طويلة جداً بحيث كان يلف جزءاً منها ويضعها في جيب معطفه عندما يأكل[19]. وقد أفرج عن سياف ورفيقه فارهانغ من السجن بموجب عفو عشوائي صاحب الاجتياح السوفييتي للبلاد. فتوجه سياف مباشرة إلى بيشاور. وكان على معرفة بمعظم زعماء المعارضة، فبعضهم كان يعمل معه في

جامعة كابول. ونظراً لكونه من آخر الذين قدموا إلى المدينة، فقد كان من بين ذوي الاحترام والشأن في المدينة ممن ليس لهم أعداء بقدر ما لهم من الأصدقاء.

ويقول الصحافي الباكستاني يوسفزاي،: "كان [سياف] جديداً، وآخر من وصل إلى المدينة، وهو بذلك لم يكن قد اشترك في الصراعات والمنازعات الداخلية.... ولم تكن سمعته ملوثة بالفساد بعد".

وكانت جماعات المقاومة الستة الرئيسة تحاول تنظيم نفسها بما يشبه القوة الموحدة، تحت الوصاية الباكستانية. ووقع الاختيار على سياف كحل وسط بين قادة هذه الجماعات ليقود التحالف الجديد للفصائل كافة.

سافر سياف الذي يمثل الفصائل الأفغانية إلى السعودية حيث تحدث أمام مؤتمر يضم المتبرعين الحاليين والمحتملين. وكانت غالبية الأموال التي تأتي من السعودية هي أموال حكومية من خزينة الدولة يتم توصيلها عن طريق الحكومة الباكستانية. وكانت التبرعات غير الحكومية قليلة. إلا أن سيافاً استطاع فتح الباب أمام سيل من التبرعات الشعبية التي بقيت تتدفق لعشرين سنة لاحقة. ويقول روبرت إيستهام القنصل الأمريكي في بيشاور في ذلك الوقت: "لقد عاد سياف إلى بيشاور ومعه "حلة مليئة بالأموال"، ويضيف، "كان سياف عالماً، ولهذا لقي الاحترام. لقد استطاع توطين الرسالة الإسلامية السعودية المحافظة، كما أنه خطيب بارع من الطراز الأول"[(20)].

وبعد وقت قصير من عودة سياف إلى بيشاور، انفرط عقد تحالف فصائل المقاومة. فأسس سياف الاتحاد الإسلامي، أو حزب الوحدة الإسلامية، الذي أصبح سابع الأحزاب التي تعترف بها باكستان رسمياً وتتلقى منها الدعم. ووافق الأمريكان والسعوديون على الخطة الباكستانية.

وقبل أن يصل سياف إلى بيشاور، كان قلب الدين حكمتيار وهو الآخر عضو في جماعة الإخوان المسلمين في أفغانستان، هو القائد المفضل لدى

السعوديين. أو على الأقل كان ذلك ما يعتقده الناس. ولم يكن ذلك شيئاً يمكن إثباته. ويقول إيسثام: "كانت الأموال السعودية قوة جاذبة في بيشاور. إنك تشعر بها ولكنك لا تستطيع أن تراها"[21]. وبدأ سياف بمنافسة حكمتيار على المساعدات. وأصبح كلاهما المتلقي المفضل للأموال السعودية المغدقة، إضافة إلى الأموال الأمريكية التي كانت تصل عبر باكستان بمجموع كان يفوق مئات الملايين سنوياً. وقد أثبت سياف أنه جامع متميز للتبرعات. فقد كان ذكياً، ومتى أراد، يمكنه أن يكون مرحاً جذاباً. ومن القصص التي شاعت عنه في بيشاور أنه كان يستخدم الأموال السعودية ليعيش حياة بذخ وترف، ولكن عندما كان يحين زيارة مموليه السعوديين كان يرسل أثاثه الفاخر إلى المخزن ويستبدله بفراش متواضع. وعندما يسأله زواره لماذا يعيش حياة بسيطة، كان يرد قائلاً: "كيف أريح رأسي على وسائدة ناعمة والمجاهدون يتوسدون الحجارة؟".

يقول ميلتون بيردن الذي كان يتولى عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في ذلك الوقت: "عمل سياف مع حكمتيار، ثم انفصل عنه. إذ لم تكن هناك غرفة يمكنها أن تتسع لهذين الشخصين العملاقين في وقت واحد"[22]. "كان السؤال الوحيد هو: هل تملك قادة حقيقيين يقفون خلفك؟ والجواب نعم. ومن بين الأحزاب الأصولية، تميز سياف عن الآخرين بسبب إجادته اللغة العربية وبسبب روابطه بجماعة الإخوان المسلمين. وبالنسبة للبشتون كان هو خيارهم الأوحد".

شكّل انفصال سياف عن حكمتيار بداية حلقة الخيانة والغدر التي وصمت بها الأحزاب السبعة لعقود لاحقة، والتي عانى منها كل شخص في أفغانستان. ومع ذلك، فقد جعلت الأموال من سياف شخصية مهمة. واستطاعت تمويل حزبه حزب الوحدة الإسلامية، والجيش والضباط الذين يقودونه، إضافة إلى صحيفة، ومخيم ضخم للاجئين، وحتى كلية تسمى جامعة الدعوة والجهاد.

وأصبحت الجامعة تعرف بأنها المكان الذي يمكنك أن تتعلم فيه مهارات شريرة غير الحساب والرياضيات - كصنع القنابل مثلاً. وقد وصفها أحد الطلاب للصحفية الأمريكية ماري آن ويفر بأنها ساندهرست إسلامية، مشبهاً إياها بالأكاديمية العسكرية البريطانية المشهورة، ولكنها مع ذلك، كانت كلية أصيلة تضم أكثر من ألفي طالب يدرسون الهندسة، والتقنية الطبية، والآداب. وتقع الكلية المبنية من الحجارة والطين التي تضم مساكن للطلاب، والملاعب الرياضية، وسط مخيم جالوزي للاجئين الذي يأوي أكثر من مئتي ألف لاجئ أفغاني، والمحاط بحقول التبغ والسكر، قرب مدينة بابي، على بعد حوالي 30 ميلاً من بيشاور. وهذه المدينة كانت مخيماً أكثر منها مدينة، واعترافاً بالحقيقة على أرض الواقع، أطلق عليها الباكستانيون اسم سياف أباد. وقد أُعجب السكان المحليون ببراعة اللاجئين الأفغان الذين بنوا اقتصاداً محلياً زاهراً من لا شيء، يضم أفران الخزف، نساجات الأقمشة، وطواحين الخشب التي تمخض العرائش والأثاث؛ وكان هناك أسواق مليئة بالفجل الياباني، والبطاطس، والملفوف، والفلفل، والزهرة، والتين، والتمر، والبرتقال والشمام، الأبيض، والمندلينا. وكان هناك حتى محطة لغسيل السيارات.

Obeikan.com